تصوير المجتمع الهندي في رحلات الرحالة السعودي محمد بن ناصر العبودي

مملى نيلوفر عبد الخالق
باحثة، قسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة مومبائي، الهند

يتناول هذا البحث الحديث عن دور رحلات الرحالة السعودي محمد بن ناصر العبودي في تصوير المجتمع الهندي بكافة أطيافه، وفئاته، وطقوسه وتقاليده، إنجازاته وإخفاقاته في العصر المعاصر والحديث. إن العبودي يتطرق إلى موضوعات شتى وقضايا عديدة اجتماعية وثقافية ومعيشية يعيشها الناس في المجتمع الهندي. كما قام العبودي في رحلاته بالتنقل بين شمال الهند وجنوبها، وشرقها وغربها، محاولا سرد أحداث ووقائع بالهند في العصر الحديث بالإضافة إلى حديثه عن طقوس وتقاليد يمارسها الناس، فضلا عن تناوله للمعتقدات الدينية التي يعتنقها الهندوس والبوذيون وأهل الديانات الأخرى في الهند. كما نجده في رحلاته يذكر المشاكل والصعوبات، والتحديات التي يواجهها الفقراء والمساكين في الهند في ظل شح الموارد وعدم التخطيط الفعال لإنجاح مشاريع إنسانية واجتماعية وصحية.
الكلمات الافتتاحية: الرحالة العبودي، الرحلات، المجتمع الهندي، طقوس وتقاليد هندية.

تمهيد:

يُعتبر الرحالة السعودي محمد بن ناصر العبودي أحد الرحالين الكبار في العصر الحديث الذين قاموا بزيارات عديدة إلى قارات العالم المختلفة، وكتبوا عن مشاهداتهم وملاحظاتهم وانطباعاتهم في رحلاتهم. ونظرا إلى كتابته للعديد من الرحلات، فقد لقّبه الناس بـ«عميد الرحالين» حيث نراه قد زار بلدان العالم الكثيرة، ورأى إنجازاتها ومعالمها، وشهد ثقافاتها وطقوس رجالها وتقاليدهم التي دوّنها في رحلاته المتنوعة. وقد كتب ما يزيد على مائة وستين كتاب في أدب الرحلات، بالإضافة إلى كتاباته الغزيرة في مجال اللغة والأدب وغيرها.

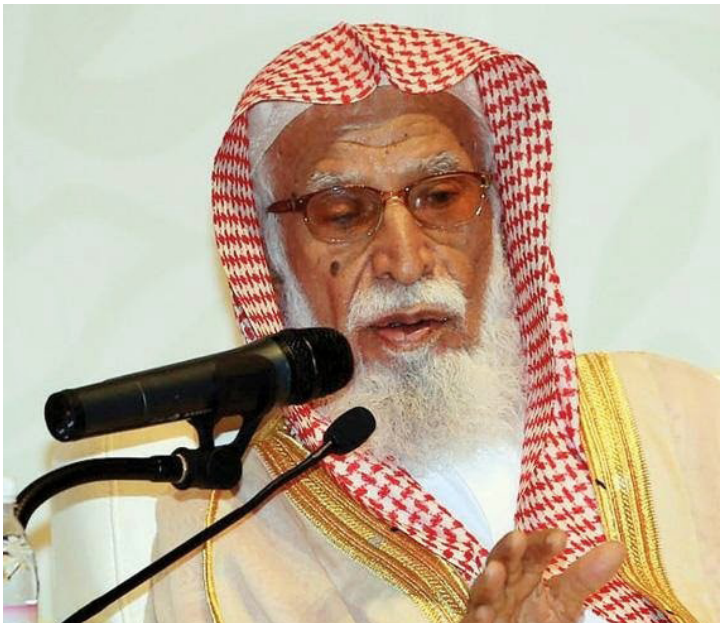

ولد هذا الرحالة الكبير في مدينة «بريدة» في القصيم في السعودية سنة ١٩٣٠م. قد حصل على التعليم الابتدائي في الكتاتيب على غرار الأطفال في عصره، حيث لم يكن نظام الدراسة والتعليم الحكومي قائما ومنظلما في ذلك الحين على الوضع الذي نجده الآن في السعودية. تلقى العبودي تعليمه الابتدائي ودرس القرآن والحديث والأدب والعلوم الإسلامية واللغوية الأخرى، وبعد ذلك قرأ على بعض المشايخ الكبار في عصره. وقد تولى منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي. وبصفته الأمين العام المساعد لها، زار بلدان العالم المختلفة، وذلك بقصد تحري واستكشاف أحوال المسلمين الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية في تلك البلدان. إلا أنه بالإضافة إلى ذلك، حاول العبودي أن يدوّن أحوال الناس العاديين في تلك البلدان مما أدى إلى ظهور كتب رحلات متميزة ألفها هذا الرحالة الكبير.

زار الرحالة العبودي أنحاء الهند المختلفة، شرقها وغربها، شمالها وجنوبها عدة مرات، وشاهد معالمها الثقافية والحضارية فيها، الأمر الذي أكسبه خبرات واسعة، وأعطاه المعلومات عن هذه البقاع النائية. وقد بلغ عدد سلسلة رحلاته عن الهند سبع عشرة رحلة. وبذلك قدّم العبودي مساهمة كبيرة في أدب الرحلة، وترك وراءه تراثا أدبيا غزيرا وغنيا، يفيد الأجيال التالية، ويمدهم بمعارف ومعلومات عن أحوال الشعوب والفئات المختلفة في العديد من الدول العالمية. زيارات الرحالة العبودي العديدة إلى

مختلف بلدان العالم أطلعته على ثقافات الناس وطقوسهم وتقاليدهم.

موضوعات رحلات العبودي

يتناول الرحالة العبودي في رحلاته القضايا الاجتماعية السائدة في المجتمعات البشرية في العالم. ونراه يقدّم صورا دقيقة لأحوال المسلمين في البلدان الأفريقية والآسيوية والأوروبية وفي البلاد الأخرى المختلفة. كما نجده يذكر في كتابه «مع المسلمين البولنديين» أحوال الناس في هذا البلد الأوروبي وأوضاعهم ويصف البلاد ورجالها. ومع ذكره للأوضاع ووصفه للمناظر والمشاهدات، يصف العبودي حسن النساء هناك قائلا: «إنهن على غاية من الجمال، فهن من جنس السلافي الذي يسميه أسلافنا العرب بالجنس الصقلبي، والغريب في الأمر أنه بالنظر إلى جمال التقاطيع في وجوههن والنضارة أو اللون الوردي الذي يميل إلى اللون الذهبي في سحنهن»[١]، ويصف في كتابه الآخر عن جمال المرأة الفرنسية قائلا: «وما رأيت في كثرة ما جلت عليه من أنحاء العالم مثل المرأة الفرنسية في رقتها إذا استلقت رجلا، وفي صنعتها وفي وجهها إذا جملته، ومن إتقانها لعملها إذا أحبته».[٢]

ويتضح لنا بعد إمعان النظر في رحلات العبودي أن الأسلوب التقريري الجاف يسود أسلوبه أحيانا على الرغم من امتلاكه مقدرة لغوية وأدبية فائقة على التصوير ووصف المشاهد والمناظر والمعالم. وكان الرحالة العبودي موهوبا بذوق رفيع. ورحلاته تبدو مصطبغة بصبغة دينية إذ كان الهدف وراء رحلاته هو استكشاف أحوال المسلمين وأوضاعهم في أنحاء العالم المختلفة، والتعرف على واقع حياتهم ومعيشتهم. ومما ريب فيه أنه بذل قصارى جهوده، وأبلى بلاء حسنا في هذا الميدان. وقد كان يهدف دائما إلى أن يتعرف على أوضاع المسلمين في البلدان المختلفة. ومما أضاف إلى كتاباته قيمة بحثية وعلمية هو أن كاتبها شهد المناطق العالمية التي زاراها عن كثب، ورآى المقومات الثقافية والمعالم الحضارية، وطرق العيش للرجال المقيمين فيها وقضاياهم الاجتماعية والمعيشية عن كثب، الأمر الذي أمده بخبرات واسعة ساعدته في تصويره لتلك المناطق والكتابة عنها بتفاصيلها.

رحلات العبودي إلى الهند وكتاباته عنها:

إضافة إلى زيارته إلى مختلف بلدان العالم، قام العبودي بالعديد من الزيارات إلى

١ مع المسلمين البولنديين، محمد بن ناصر العبودي، ص، ٩٦

٢ شهر في غرب أفريقية، مشاهدات وأحاديث عن المسلمين، ص ١٢

الهند وأرجاءها المختلفة، وقد دوّن في رحلاته كل ما رآه من معالم ثقافية وحضارية، وتطورات حديثة، فضلا عن كتابته فيها عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، والمعتقدات الدينية التي يعتقد بها الناس. ويبلغ عدد سلسلة رحلاته الهندية إلى سبع عشرة رحلة. ومن بينها نجد الكتب التالية: «محمد بن ناصر العبودي: سياحة في كشمير و(حديث عن ماضي المسلمين وحاضرهم)» و»في غرب الهند (مشاهدات وأحاديث في شؤون المسلمين)»، و»نظرات في شمال الهند، الجزء الأول» و»نظرات في شمال الهند، الجزء الثاني»، و»في أقصى شرق الهند» و»الشمال الشرقي من الهند (رحلته في ولايتى بيهار وأترابراديش وحديث عن المسلمين»، و»في وسط الهند (رحلات وأحاديث عن ماضي المسلمين وحاضرهم)» و»في جنوب الهند (رحلات في ولايات تامل نادو وكرناتك» و»راجستان بلاد الملوك (زيارة وحديث عن المسلمين)» و»الاعتبار في السفر إلى مليبار» و»سياحى في كشمير» وجولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الاسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي»، و»في شرق الهند»، و»على أعتاب الهملايا» و»بلاد الهند والسند: باكستان»، و «الشمال الغربي من الهند» و»في شمال شرق آسيا» وغيرها من الرحات عن الهند وطقوسها وأوضاعها وتقاليدها ومعيشتها.

إن الرحالة العبودي كتب هذه الرحلات المذكورة أعلاه بعد زياراته العديدة إلى أرجاء الهند المختلفة. وقد قام في هذه الرحلات بتقديم صور دقيقة ورائعة عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وذكر المعتقدات الدينية وبيان التقاليد المجتمعية السائدة في الهند. ويقول هو بنفسه في مقدمة أحد كتب رحلاته: «كان لي نصيب من إيصال الخير من بلاد الحرمين الشريفين إلى أولئك الإخوة في الدين، حتى زرت الولايات الهندية من أقصى الشمال في كشمير إلى أقصى جنوب الهند في كيرلا، تامل نادو، وفي شرقيها ولاية أوريسا، وقربها بنغال، وإلى غربها في ولايات مهاراشترا وغجرات وراجستهان»، وذكر فيها الأحوال السياسية للمسلمين وعدد سكانهم لأن المسلمين يزيدون على مائة مليون نسمة وهم أكبر أقلية مسلمة في العالم بعد أندونيشيا».[٣]

وعلى هذا المنوال، نرى أن هذا الرحالة السعودي الكبير تناول في رحلاته القضايا الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية التي تعيشها الأقليات المسلمة في مختلف بقاع العالم بهدف تقديم معلومات عنها، محاولا بذلك جلب انتباه القراء وجمهور الناس إلى إظهار التضامن معهم، ومد يد العون إليهم.

٣ نظرات في شمال الهند، الجزء الأول، ص ٢٠.

وبالإضافة إلى ذلك، يذكر محمد بن ناصر العبودي في رحلاته عن أحوال المسلمين في أي بلد، الطريقة التي وصل نور الاسلام إليها، ودور الدعاة المسلمين في نشر تعاليم السمحة، وأيضا دور التجار العرب والمسلمين في ترويج ونشر العقيدة الإسلامية.

القضايا التي عالجها الرجالة العبودي في رحلاته:

لقد ذكرنا في السطور الماضية أن الرحالة العبودي تناول في رحلاته الحديث عن الطقوس والعادات والثقافات والتقاليد السائدة في الهند، فضلا عن تناوله للمعتقدات الدينية، والطقوس والممارسات التي يعتقد بها الناس ويمارسونها. ومن بين القضايا التي تناولها في رحلاته نجد قضايا المرأة الهندية حاضرة بكثافة في كتاباته، بالإضافة إلى كتابته عن قضية وأد البنات بقتل الجنين. كما يسرد الرحالة العبودي زياراته إلى بعض الأماكن المقدسة لدى الهنادك والبوذيين. فعلى سبيل المثال كتابه «نظرات في شمال الهند، الجزء الأول» يُعتبرُ من أهم ما كتبه الشيخ العبودي بهذا الصدد. فالكتاب يتحدث عن الأماكن التاريخية والمراكز الدينية الهندوسية التي زارها بالقصد وبعضها مرورا في الطريق بدون القصد.... والمؤلف يذكر في هذا الجزء غرائب الهند من المعتقدات والعادات القديمة، وذكر فيه عن تاريخ وأد البنات في الهند ومكانة المرأة بين الماضي والحاضر وناقش الأوضاع السياسية وأسبابها مع ذكر المؤسسات والمنظمات الطائفية في الهند»[٤].

تتناول الرحلة الحديث عن أحوال المرأة الهندية في الزمن الماضي والحاضر، وتقدّم صورا عن معاناتهن وقيامهن بالأعمال الصعبة والشاقة مع الرجال. كما نراه يتطرق إلى قضية وأد البنات في الهند وذيوع هذا الأمر في بقاع الهند المختلفة. وهو يقول بهذا الصدد: «إننا نقرأ في الجرائد والصحف والأخبار عن قتل البنات في بطن أمها أو عند ولادتها. وإذا كانت الأرملة تحرق حية فإن الالهنود حكموا على الرضيعات بالوأد عند ولادتهن، ونشرت الإحصاءات والمقالات عن عدد البنات الموؤدة في الهند، والعجيب أن أكثرهم كان بين الطبقات الغنية أكثر من الفقيرة ثم انتشر هذا الوباء في الأعوام الأخيرة إلى الطبقات الأخرى من «بهومي هار، ويادو، وكائستة حتى البراهمة أيضا اتخذت هذا التقليد الغليظ، حيث بلغ عددهن أكثر من ألف بنت سنويا في ولاية بيهار وحدها، فهم يقتلون الفتاة إما بوضع الملح في فمها أو أي مادة سمية أخرى، وإن لم تمت بهذا تخنق حتى تموت»[٥] كما يصف الرحالة المبدع العبودي أوضاع الهنود الاقتصادية ومعيشتهم الضيقة في رحلاته،

٤ نفس المصدر، الجزء الأول، ص، ٢٢، ٢٣

٥ صحيفة «دعوت» الصادرة من دلهي ٩٥/١/٥

ويتحدث عن الصعوبات التي يواجهها عامة الناس، والمشاكل التي يعانونها للحصول على لقمة العيش. وإضافة إلى الحديث عن الشؤون الاقتصادية، يذكر العبودي أيضا معاناة المرأة الهندية واضطرارهن إلى القيام بالأعمال ويذكر العبودي فقرهن الواضح الذي اضطرهن على هذا العمل الشاق بأجرة تافهة وقليلة، وهن يرتدين اللباس الهندي التقليدي للمرأة وهو «الساري» الذي يصل أسفله إلى الأرض. إنه رآى في مدينة مومبائي شيئا غريبا لم يره في أي مكان آخر من العالم وهو مساكن الأرصفة، وهي مساكن مصنوعة ومؤقتة، فعدد كبير من الناس يعيشون طول حياتهم على أرصفة الشوارع ليس لهم من المساكن إلا خيشة أو قطعة من الورق المقوى (الكرتون) يفترشونها أو يجعلونها كالصندوق الكبير الذي تراهم في أكثر المدن الهندية، وأما مكان قضاء حاجاتهم فإنه الأماكن العامة أما الطعام فإنه ما تيسر، وأما اللباس فإنه الذي على الجلد ليس غيره.[٦]

وقام العبودي ببراعة واضحة بعقد المقارنة بين تفوق الهند وتقدمها في ميدان البحوث العلمية وصناعة الصواريخ والطائرات الجوية. ويطرح الكاتب في ذلك السياق تساؤلا عما إذا كان من الأولى حل مشكلات أولئك الجياع الذين لا ملجأ لهم ولا مأوى بدلا من أن ينفقوا أموالا طائلة على تلك البحوث»[٧]

حديثه عن الديانات الهندية

تناول الرحالة العبودي الحديث عن المعتقدات والديانات الهندية المختلفة في أرجاء البلاد. وهو في كل ذلك يمزج مشاهداته وخبراته وتجاربه في زياراته مع ما قرأه في الصحف والكتب. وفي مكان في إحدى رحلاته يذكر العبودي عن الهنود كثيرا ويذكر إحراقهم لجثث موتاهم، وقد ذكر عن مشاهداته وتجاربه عن حرق الميت في ضفة نهر غنغا أو قانغا، وقد جمع الناس الحطب، وفي ذلك يقول: «فوصلنا ورأينا ميتا قد قارب أن يتم حرقه، وبجانبه رجل عار من كل شيئ إلا خرقة على وسطه مع عوج كبير من الحطب يقلب بقايا الميت على النار ويضرم بقايا الحطب ويرد ما خرج منه إلى وسط النار، إنه يقلبه بعوده حتى يتم حرقه ويستريح منه بعد عملية مجهدة تستمر ثلاث ساعات متكاملة أمام نار مشتعلة».[٨]

كما ذكر محمد بن ناصر العبودي في رحلاته عن الهند، الفروق الطبقية الهائلة

٦ نظرات في شمال الهند، ج١، ص، ٢٣

٧ نظرات في شمال الهند، ج١، ص، ٢٤

٨ الشمال الشرقي من الهند، محمد بن الناصر العبودي، ص، ٩٥

الموجودة بين معتقدي الديانة الهندوسية، وهو بذلك يظهر التفاوت وشعور عدم اللامساواة، والتمييز الطبقي الجائر الموجود بين معتقدي الديانة الهندوسية. كما يتطرق الرحالة العبودي إلى التقاليد الهندوسية القديمة التي يتمسك بها الهندوس. وفي كل ذلك لم يغب عن بال العبودي ذكر ما يتعرض له الأفراد المنتمون إلى الطبقة الدنيا بين معتقدي الديانة الهندوسية من اضطهاد وظلم وعدوان على أيدي الأفراد المنتمون إلى الطبقة العليا.

الخاتمة

لقد رأينا فيما مرّ بنا بأن الرحالة العبودي قدم مساهمات قيمة وثرية في مجال الرحلات. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن رحلاته العديدة والموضوعات التي تناولها فيها تدل على براعته ونبوغه وتفوقه في هذا المجال. ورحلاته عن الهند غنية بالمعلومات الكثيرة والخبرات المتنوعة، فضلا عن قيامه بتدوين ملاحظات دقيقة ورائعة عن بعض الصعوبات والتحديات التي يواجهها الناس في الهند في حياتهم اليومية. ونظرا إلى كل هذا نستطيع أن نقول بأن العبودي حقا يُعدّ «عميد الرحالين».

المصادر والمراجع

١. الشمال الشرقي من الهند، محمد بن الناصر العبودي
٢. نظرات في شمال الهند، محمد بن الناصر العبودي، الجزء الأول
٣. مع المسلمين البولنديين، محمد بن ناصر العبودي
٤. شهر في غرب أفريقية، مشاهدات وأحاديث عن المسلمين، محمد بن ناصر العبودي